دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	آباء الخطأ الرومانسي : الشيخ النفزاوي نموذجا
المصدر:	أدب ونقد
الناشر:	حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي
المؤلف الرئيسي:	دياب، محمد حافظ
المجلد/العدد:	مج 18, ع 197
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	2002
الشهر:	يناير
الصفحات:	11 - 28
رقم MD:	331538
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	القرآن الكريم ، الشريعة الاسلامية ، العلاقات الجنسية ، نكاح الاستبضاع ، القبائل العربية ، الفقه الاسلامي، النفزاوي، محمد بن عمر، 1430 هـ، العلماء المسلمون ، النكاح ، الجماع
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/331538

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

دراسة العدد

غلاف الروض العاطر في طبعته المغربية

آباء الخطأ الرومانسى
الشيخ النفزاوى نموذجا

د. محمد حافظ دياب

التحرز من مقاربة المسألة الجنسية ، يمثل جانبا من المعرفة المقموعة فى ثقافتنا العربية . إذ يتم تناول هذه المسألة بوجل وحذر يجعل الاقتراب منها أمرا شائكا وملغوما ، يحوطه الإقصاء ، أو تتلبسه المحاذير والمخاوف ، بسبب من تقاطب حيثياته على أكثر من مستوى ما بين قيم وسمات سلوكية اختطها المجتمع التقليدى ونظمها وحولها إلى نماذج معيارية ضابطة للمواقف الواجب اتخاذها حيالها وسياقات للتحديث تعبر عن

نفسها بحرية ، مع تقدم المعرفة الطبية والسيكولوجية والديموجرافية.

وعلى مستوى ثان، لاتكائه على التمييز بين عام يستأثر بحق الحكم فى كل ما يتعلق بنمط العيش الجماعى ،وخاص يرهنه وبرمته فى الحياة المنزلية، وهو تمييز أعتبر واضحا وصارما وملزما للجميع / يسبب اختراقه نبذ الجماعة وعقاب السماء.

وعلى مستوى ثالث ، ينوس بين ديونيزية ،ممنوعة من الظهور والإعلان أو مسكوت عنها ، ورواقية طهرانية موجهة ومدعمة بالمقدس ، وإن ظلت المسألة الجنسية أكثر تعقيداً أو اتساعا وغنى من تقاطب هذه المستويات.

يزيد فى عسر تناول هذه المسألة راهنا، تواترها فى ظروف عطب متواصل حول الوعى بها، حين ووجهت أعمال أدبية فى بعض من الأقطار العربية بالمنع والمصادرة ولغة الزجر القانونى ، بزعم مجافاتها للدين والأخلاقيات ، قصد ضبطها ، والحدّ من مخاطرها والتحكم فى حدوثها المحتمل ، لدرجة غدا معها خطاب الجنس من أكثر الخطابات المدرجة ضمن اللائحة السوداء.

ولعله فى المستطاع مقاربة الأمر بصورة أجلى: من خلال محاولة الاجابة عن تساؤلات من قبيل : كيف تموضعت المسألة الجنسية عبر المدونة العربية؟ وماذا عن صلتها بالمجال الدينى المقدس ؟وفى أى الوجوه يتمايز طرحها بين الفقه الرسمى والخطاب الشعبى ؟ وهل يحتوى التعامل معها على ما يصادم الدين ويناقض مبادئه؟.

*** الإسلام والجنس:**

لقد بدت الحاجة أو فى إلى تنظيم العلاقات الجنسية مع ظهور الإسلام،بالنظر إلى تواجد ممارسات شاذة كانت متبعة قبلا فى الزواج ، لعل من أهمها الاستبضاع والرهط:

تتحدث السيدة عائشة عن الاستبضاع حيث: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه. ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه .فإذا تبين حملها ، أصابها زوجها إذا أحب. وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابةالولد.فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع(١) ولدى بعض القبائل العربية ،كان يباح أن تشترك جماعة من الرجال فى زوجة واحدة ، فتكون مشاعا بينهم ،حين «يجتمع الرهط دون العشرة ، فيدخلون على المرأة فيصيبونها .فاذا حملت

ووضعت ترسل إليهم ، فلا يستطيع واحد منهم أن يمتنع .فاذا اجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذى كان فى أمركم ، فهو ابنك يا فلان ، وتسمى من أحبت باسمه ،فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع عنه الرجل(٢).

كان على الإسلام أن يواجه هذا الواقع ، بتنظيم النشاط الجنسى للمسلم، وفق الأهداف المرسومة لمجتمع مرغوب فى تأسيسه.

ولأن الإسلام لا يقف ضد الفطرة ،فقد تعايش مع الجنس واعترف به كسنة فطرية من ضرورات الدنيا والدين ، بواسطة تهذيبه وضبطه لامنعه وكبته ،وفق معايير تدمجه فى الجماعة وتسمو به فى علاقة شرعية بين الرجل والمرأة ، شرعها الإسلام فى أنواع ثلاثة : الزواج الدائم ، والزواج المتقطع أو زواج المتعة وهو مختلف عليه بين السنة والشيعة ،وملك اليمين وهو مقيد بشروط .

والناظر فى القرآن والحديث ، يدرك أن الممارسات الجنسية المختلفة، من اشباع ذاتى أو احتلام أو سحاق وغيرها ، لم تحظ بعناية ، بينما عدّ الجماع هو الممارسة الجنسية الشرعية ،خلال ربطه بالزواج

من هنا كان احتفاء القرآن برباط الزوجية ،حين جعله عقدا ممتازا على العقود ،قائما على الثقة والوفاء ورعاية العهد والمودة والرحمة(٣) ،وقد سمى القرآن الزواج ميثاقا ،كما سماه نكاحا ، يسير فى الدنيا بوجهة معاكسة للنكاح الأخروى، حيث كبح الشهوة وتثقيفها فى نطاق الزواج هو عماد النكاح الدنيوى ،فيما تطلق الشهوات فى الأخروى ،وتشبع تامة مع التنعم الفردوسى بعذراوات الجنة المتلونة أجسادها بالمسك والعنبر والكافور (الأبكار- الحور العين ،الخيرات ،الحسان ،الكواعب الأتراب).

وتظهر معجمية مفردات الفعل الجنسى فى هذه النصوص ،كجهاز ترميز كامل لكل ما يتصل بهذا الفعل (الوصال، الجماع، النكاح ، الإصابة، البناء ،الوطء ،الغشى،المباشرة ، الولوج ،الصنع ، الوقاع..) شريطة التحلى بالتقوى فى الأساس :«وقدموا لأنفسكم واتقوا الله وأعلموا أنكم ملاقوه (٤) ،وقد فسر هذا على أنه أمر يقضى بالبسملة قبل الجماع كدلالة على التقوى.

وحرصا على تنظيم هذا الفعل ، تم تحريم نكاح المحارم(٥) ،والمشركين(٦) ومنع الزنى(٧) ،واتيان البهائم (٨) ،والسحاق(٩) ،واللواط(١٠) والأمر باعتزال النساء فى

المحيض(١١) ، والطهارة بعد الجماع(١٢) ،والنهى عن نكاح السر(١٣) ،وتحديد العدّة ، إلى غير ذلك من الاجراءات التى من شأنها أن تقيد النشاط الجنسى بجملة من الأهداف والمصالح والقيم نحو ترسيخ الطاعة، وحفظ النسب ، إضافة إلى الإلحاح الواضح على ضرورة انعقاد التواصل الجنسى فى جوّ يسوده الوفاق والتودد والإحسان وحسن المعاشرة(١٤) ،والنهى عن ظلم النساء بالظهار (المجاهرة بتجنب الزوجة)، أو الإيلاء (الحلف بتجنبها) ،أو العضل (المفاخرة بعدم انعام الأبنة أو الأخت لأحد) (١٥) .أما الختان ، فلم يشر إليه فى القرآن ، إنما ذكر لاحقا أنه تأسس فى نطاق الأعراف النبوية ، ثم أضحى تقليداً يمارسه البعض من المسلمين.

*** فى الفقه الرسمى:**

ورغم التحديدات التى قدمها القرآن والحديث حول المسألة الجنسية فقد بدت الحاجة إلى نسقية فقهية لهذه التحديدات ،مع اتساع المجال الحضرى فى المدن الإسلامية الجديدة ، وتنوع العلاقات المجتمعية وتجددها ، نتيجة الفتوحات والتواصل بين اللغات والثقافات والمجتمعات التى جرت بين الشعوب والأعراف المسلمة من الهند وفارس إلى المغرب والأندلس.

ساعد على ذلك ، رغبة رجال الدين أو «وزراء الطقوس المقدسة» كما أسماهم روجيه باستيد **R. Bastide**(١٦) فى منع الفساد المتفشى ، بسبب من نضج نظام الحريم الذى تكونت نواته فى العصر العباسى على عهد الوليد الثانى تقليداً للبيزنطيين ،وتبلور فى بلاط هارون الرشيد المكتظ بالحريم والقيان والخصيان ، مع انفتاح باب الهجانة ، وشيوع نظام التسرى وتحللاته ، وتكاثر الجوارى(١٧).

ويحدثنا ألا بشيهى عن فقهاء وعلماء ورجال عاديين ، سجلوا فى هذا العصر أخبار علاقاتهم الجنسية وحكايا جواريهم وما وقع لنساء مجتمعاتهم بوضوح وحرية(١٨).

فالفضل بن الربيع وزير الأمين، يصف امرأة يشاهدها لأول مرة فيعشقها بقوله: ثم رفعت ثيابها حتى جاوزت نحرها ، فاذا هى كقضيب قد شيب بماء الذهب ، يهتز على مثل كثيب ، ولها صدر كالورد ، عليه رمانتان أو حقان من عاج يملأن يد اللامس ، وخصر مطوى الاندماج ، يهتز فى كفل رجراج ، لو رمت عقده لانعقد ، وسرة مستديرة يقصر وهمى عن بلوغ وصفها ، وساقان خدلجان ، وقدمان خمصاوان(١٩).

لقد دفع هذا المناخ برجال الدين والمشرعين إلى اعتبار المسألة الجنسية مادة خصبة ، وجب نقش لغتهم الضابطة عليها ، بتشريع القيم وتقنين السلوك المتصل بها ، مع الحفاظ على المسافة بين الحرائر والاماء ، وعدم جرحها ، لما يعنيه ذلك من تمييع الحدود الحصينة التى تمنح الحرائر موقعها المميز ،وهو ما أثمر نظريات فى الفقه ، بجانب علم مستقل بذاته هو «علم النكاح» (٢٠) ، شارك فيه أئمة وعلماء وفقهاء ، مثل مالك والسيوطى والترمذى والقرطبى وابن ماجة والونشريسى والغزالى وابن حزم والسراج وابن قيم الجوزية،والتعرف على السمات الناظمة لهذا الفقه الرسمى ،جاء فى اتساق مع تحدد الدولة ، وتقنين اللغة، وضبط التراتبية الاجتماعية ، وترسيم المؤسسية الدينية ، وتكريس البطريركية.

وعلى رأس هذه السمات ، تبدو الامتيازات التى خص بها الذكر معززة لسلطته ومبخسة لحقوق الأنثى ،وفق أطر أخلاقية وتراتبية جمعية، لا تجد معناها وكليتها الا بالاندراج ضمن هيمنة الشفرة التى فرضها النظام البطريركى لتقوية قبضته على المرأة، اعتباراً من دخول هذا الفقه فى علاقات محايثة مع تلك الأطر الأخلاقية والتراتيبية الجمعية ،التى تقوم كخديم له.

وفى هذا السياق ، على المرأة المسلمة عدم نكاح غير المسلم ، وأن تستجيب استجابة كاملة للزوج فى الفراش ،وعدم جواز مبادرته ومراودته عن نفسه أو التصريح برغبتها فى النكاح ، والنهى عن أن تعلوه فى المواقعة ، أو النظر إلى فرجه أو استدخاله دون إذنه ، ،وكراهة نخرها عند الجماع والتنويه «بفضيلة» الصمت، وتلقى فرج الرجل شاءت أو أبت ، وعدم التحدث مع أحد فى شئونها الزوجية ،وانتظار الزوج الغائب ويحبذا ألا تتزوج حتى يعلم موته،وكلها دالات تسمح بطبع حاملاتها ،وتسجيل شفرات النظام البطريركى الغابرة والحاضرة على أجسادهن وذاكرتهن ، جاعلة من مدلولاتها قاعدة يحرم اختراقها.

من هنا حرص الفقه الرسمى على تشكيل صورة للمرأة ، تتسق مع ما ورد فى الحديث على أنها :«خير متاع الدنيا» ،فجعلها تتحلى بجملة خصال تكتنز مترادفاتها ، فهى:الصالحة ،المطيعة ، التبوع ، الستيرة ، العروب ،الصبورة ، العفيفة ، الودود، الحسيبة ، الولود ،والجميلة ، وتلك الخصلة الأخيرة تتسع لها مفردات عديدة(الوضيئة

،الحسانة ، الوسيمة ، القسيمة ، الباهر).

والأمر هنا يتعلق بصنوف أخرى من النساء ، تهيب نصوص الفقه الرسمى بالعزوف عن اتيانهن كالمجنونة وصاحبة العاهة والسوداء والدميمة والعاقر والعجوز :فالمجنونة غير محتاجة للوطء لأنها: «لا تجد شيئا ولا تعرف ذلك لما هى كالنائمة» (٢١) .أما صاحبة العاهة كالبرص أو الجذام أو أمراض الفرج: فقد يكون من درء الفرج ما يجامع معه الرجل ولكنها تردّ منه(٢٢) والسوداء : «لا تصلح لمتعة(٢٣) ، والدميمة يتم الابتعاد عنها لأن : «الحسناء أصلح للتحصين وغض البصر وقطع الشهوة»(٢٤) ،كذلك العاقر لأن الشهوة تطلب لتحصيل الولد» والأمر بالمثل للعجوز ، لأن : «وطء العجائز سم قاتل غير شك»(٢٥) .

وتزخر النصوص بصنوف مكروهة من النساء ، يرفضن الانصياع لأوامر البعل ، مثل الفارك التى تمتنع عن الاستجابة لأوامره ، والناشز الكارهة للجماع ،والمغوصة التى تدعى أنها حائض ، والمسوفة المتعللة بمختلف الحيل كلما دعاها بعلها للوطء ،والمختلعة صاحبة العقار والمال التى تخلع زوجها ،والشاكية التى لا يعجبها زوجها فى الجماع فتشكوه إلى أصحابه.

أما الرجال ،فقد أوصت هذه النصوص بعقاب المخنث واللّوطى ، ابعادا لتهديد منطق الوضوح والهوية والتمايز الجنسى ، الذى يؤسس السائد الطبيعى والاجتماعى.

إنه الفقه الرسمى حين يضع قواعده وضوابطه وممنوعاته على المسألة الجنسية ، ويحدد الخطوط العريضة والخطاب المسموح به حول ما يتعلق بمتطلباتها، بحسب اختزالية أخلاقية(**Maral reductionism** يعينها فى إقامة تعارضات مزدوجة بين الفضيلة والإثم ، السمو والهبوط ، والطهارة والنجاسة ، يتم عبرها اضفاء صفة الخير على طرف والشر على الآخر بصفة مطلقة ، طبق مبدأ ثيولوجى يشى بتسويغ نوع من الحجج القائمة على ما يمكن أن يعتبر نظاما متكاملا ومطلقا لحياة المسلم الجنسية، طالما يظل فى لاوعى هؤلاء العلماء ما يقاوم الاعتراف بامكانات المرأة، سوى الخيانة وفضل النكاح والولادة.

*** خطاب الجنس الشعبى :**

ورغم الضوابط والقواعد التى اختطها الفقه الرسمى حول المسألة الجنسية ،فقد

اختلف أصحابه فى تفاصيل تسويغها:

فعلى حين يؤكد الرازى على أن الرغبة الجنسية هى أخس الرغبات لدى النفس العاقلة(٢٦) ، يراها أبو اسحق الجوينى طريقا إلى السعادة(٢٧) .، وإذ يبيح مالك الوقاع فى الدبر ، يرى القرطبى أن من حق المرأة أن تمنع زوجها من ذلك متى اعتبرت أنه يلحق بها الضرر .كما أن القرطبى يخالف العلماء أيضا فيما ذهبوا إليه من أنه فرض على الزوج مضاجعة زوجته أدناها مرة فى كل طهر ، فألح على أن:« يتوخى أوقات حاجتها إلى الرجل فيعفها» (٢٨) ورأى الونشريسى أنه بامكان المرأة التى تنازلت عن حقها فى الوطء لصالح أخرى أن تتراجع ، وأن :« تتمسك بحقها الذى جعله تعالى لها(٢٩) . كذلك أباح ابن حزم والونشريسى للمرأة أن تظاهر زوجها(٣٠).

واختلاف الآراء بين هؤلاء العلماء فى تفاصيل المسألة الجنسية ، دفع ممثلى الجماعة الشعبية إلى صوغ خطاب حولها ، يقف على حدود الملّة ، ويضيف إليها من معتقداته وخبراته ومواريث أعرافه ،احتجاجا ، ربما ، على وقار السائد ، وانتهاكاً لتعقيد الرسمى.

ولعل ما هو فصيح الدلالة فى هذا الصدد ورود كتابات عديدة قاربت صوغ ثقافة جنسية ، لكنها نفيت من المشهد الثقافى العربى ،، ورميت خجلة على هامشه. من هذه الكتابات :(نزهة الألباب) للتيناشى ، (تحفة العروس) للتجانى، و(الروض العاطر) للنفزاوى ،و(رجوع الشيخ إلى صباه) لحمد بن سليمان ، وأخرى صار تغييبها فى الغالب عن دائرة التدوين، من مثل(كتاب الاماء) لمحمد بن عيشون ، والروضات البهجات فى محاسن القينات) لابن أبى طىّ(وكتاب النكاح) ليحيى بن الخير.

وأصحاب هذه الأعمال لم يكونوا من الهامشيين المتمردين أو منحرفى الأخلاق ، بل من المشتغلين المرموقين بالفقه والقضاء .إذ تسلم التيفاشى منصب القضاء لسنوات طويلة بتونس ومصر، وكان التجانى واحدا من كبار أئمة المالكية فى شمال أفريقيا ، والنفزاوى قاضيا فى مدينة تونس، وأحمد بن سليمان فقيها .وهم جميعا يرون أعمالهم ذات توجه نافع للدنيا والدين: فالتيفاشى يؤكد على نبل هدفه وشرف مقصده ،لأنه ينشد الافادة والمتعة(٣١) .والتجانى يذكر أنه يرمى إلى تزويد القارئ بمعلومات ذات فائدة كبيرة إلى جانب امتاع النفوس وتسلية القلوب(٣٢) .والنفزاوى يصرّح بأنه قصد

مساعدة المتزوجين ،وجعل حياتهم الجنسية سلسلة من المتعة والسعادة والسرور، بدفع الملل الذى قد يؤدى بهم إلى النفور(٣٣) . ويورد أحمد بن سليمان أن بغيته لم تكن سوى وضع كتاب عملى ، عونا ودليلا للرجال والنساء فى حياتهم الجنسية ، وبالتالى «لعمارة الدنيا بكثرة النسل»(٣٤).

وقد جمعت أعمالهم بين القرآن والحديث والنوازل الفقهية ،جنبا مع النوادر والملح والطرائف والحكايات ،والنصوص الشعرية والحكم ، وأحاديث البطالين والظرفاء ، وعرضت لآداب النكاح والعفاف والزينة والتطيب ،وحوت أخبار القوادين والقوادات ، وشروط الزناة والقحاب واللاطة والمؤاجرين والدبابين(٣٥). ويبدو الرأسمال الرمزى الذى يكتنزها ،بمثابة جهد أصحابها من ممثلى الجماعة الشعبية ، لزيادة امكانات حريتها واشباع رغائبها ، يقوم على إعادة بناء توليدى Generative re-construction بين الدينى والاعتقادى والبراجماتى، فى حركة دائبة من التآخذ والاستيعاب المتبادل فيما بينها ، ذلك أن المسألة الجنسية فى هذا الخطاب الشعبى ، لم تحمل تقليدا قارًا يمارس استمراريته وتناقله ، بل تعرضت دوما للتأويل وإعادة الانتاج ، بأسلوب الذهنية ونمط الحياة والعيش المتبدل ، وأن تساكنت فى إهابه مرجعيات عديدة ، تحتوى أركيولوجيا من متضمنات دينية، مع ميراث اعتقادى وشفاهى ، يعبر أحيانا عن نفسه بانفلات جارح، هو فى حقيقته الوجه الآخر للفكر المقموع.

فالمتضمنات الدينية تتأسس عبر تفاصيله بغية شرعنته ، فى إطار محاولته تكريس علاقة جنسية ، قوامها الشرع الشريف ، وغايتها جلب المنافع ودرء المفاسد ، بما حدا بالخطاب أن يحتمى ويتحصن بمجال كون رمزى متعال ومقدس، فيمتاح من القرآن والسنة بطريقة أسلوبية بعينها ، تتكئ على الاستهلال بالبسملة والحمدلة ،والإقرار بالشهادتين ،وتتخلله عبارات الأدعية ، واستلهام البركة ،والعياذ بالله والتوسل برسوله ،والاستغفار من الأضاليل.

بجانب هذه المتضمنات الدينية ، أو بالحرى فى تجادل معها ، يحضر فى هذا الخطاب ميراث اعتقادى ، يحوى فى مخزونه مرويات لبعض من المعتقدات الشعبية حول الجنس كانت تجرى على الألسنة ، أو وردت فى مدونات سابقة (٣٦) ،وهى مرويات تتناثر فى الخطاب على هيئة موتيفات ذات دلالات خاصة، تحفل بما يسميه كلود ليفى

ستروس C.levi-Strauss«الميثولوجيا المضمرة» Mythologie Implicite حول الجنس.

وتنقل لنا بعض هذه المرويات ، ممارسات جنسية شاذة كالافهار، وهو أن يبدأ الرجل غشيان امرأة وينزل ماءه مع أخرى ، والاحماض أى الاتيان فى الدبر ، وذكر التجانى أن أغلب الأسياد مارسوه حتى لا تحمل الجارية (٣٧) ، والمساحقة بين امرأتين ، وأشار التيفاشى إلى انتشارها بالمغرب (٣٨) ،والمخادنة التى تتخذ خدناً للنفس لا للولد(٣٩).

أما الخوارق الجنسية ، فتنسب فى هذه الروايات إلى صنوف من النساء والرجال : المغتلمة أو المعصر الممتلئة شباباً تشتد غلمتها ، العانس متوسطة الشباب قوية الشهوة مستحكمتها ، المسلف متناهية الشباب لا شئ أشهى إليها من المباضعة والمطاولة فى الإنزال ، والمتولعة من العجائز بالجماع ، لا تنفك عن تصيد الرجال واستقبال فحولتهم استقبال الاستيعاب والتفوق ، ناهينا عن منقوص البدن، والأكول ، والمزواج ،والمعتوه ، ومعلّم الصبية ،والبصاص ، والذواق على أن الخطاب لم يكن له أن يخلو من خبرة الجماعة الشعبية ، التى يتناقلها أعضاؤها خلال أحاديثهم اليومية ،وتشتمل على ميراث شفاهى ، يصاغ فى كلمات مشحونة بالرمز والتلميح والتصريح ، أو فى أمثال تبدو كمحددات سلوكية كاشفة لكل ما يتصل بالعلاقات الجنسية.

عبر هذه الطبقات المتجادلة من التراث ، امتلك الخطاب الشعبى صيغا ووسائل تعبيرية ، مكنته من الوقوف على أمور الجنس وما يحيط به من أجواء بيولوجية وعاطفية وثقافية ، وهى طبقات تواجدت فيه عبر تناقل خبرات وموروثات عديدة، أعيد انتاجها دوماً ، وأن لم تستطع التحولات الاجتماعية الجارية أن تمس جذورها أو تطفئ جذوتها.

*** عالم الروض العاطر:**

على أنه إذا كانت طبيعة هذه المساهمة لا تسمح بتقص شامل حول كافة ما ورد فى هذا الخطاب ،فقد يتحدد المسعى بمساهمة لها صفة التمثيل والابانة، هى نص النفزاوى (الروض العاطر فى نزهة الخاطر).

.صاحبه هو الشيخ الإمام العالم العلاّمة الهمام سيدى أبو عبد الله محمد بن محمد النفزاوى ،قاضى الأنكحة فى مدينة تونس، أي المنفذ للشريعة ، فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى ،أيام الدولة الحفصية .ألفه بعد كتابين سابقين له، هما

:(تنوير الوقاع فى أسرار الجماع) ، و(مصباح الكون).

واختيارنا لهذا النص صادر عن كونه الأكثر انتشاراً ورواجاً :فقد ترجم إلى كل اللغات الأوربية ،وبيع منه فى بريطانيا وحدها ما يزيد على خمسة ملايين نسخة ، وامتدحه عالم النفس الفرنسى هنرى بييرون H. pieron, ،والبريطانى هافلوك أليس H. Allis ،وعالم الأحياء الأمريكى ألفرد كينزى A. Kinsey ،وأقرّ آلان والتون A.Walton بفضله على الغرب فى تطوير مفاهيمه الجنسية.

وينبه الشيخ النفزاوى إلى أهمية نصه ، مذكرا : «أنى أردت لهذا الكتاب أن يحير العرب والعجم فإذا قرأه العرب سرح بهم عنوانه إلى خلاف مضمونه وإذا خطر للأعاجم أن يترجموه ضلوا فى حدائقه ورياضة وبساتينه حتى إذا وقع بأيدى المتعاجمين فى شكله الأعجمى فغروا أفواههم من الدهش (٤٠).

والطريف أن الأوساط الثقافية فى سوريا شهدت معركة دارت حوله عام ١٩٧٨ ،انقسم فيها المشاركون بين مؤيد له امتدحه ، ومعارضون رأوا فيه نوعا من الأدب المكشوف Pornography.إذ عاينه أحمد عمر شاهين كموسوعة عربية فريدة فى الثقافة الجنسية(٤١) ،واعتبره عبد اللطيف ياسين : بادرة جريئة من شيخ اتفق مترجموه على وقاره وورعه» (٤٢) فيما رآه خلدون الشمعة كعمل مبتذل ورخيص(٤٣).

وثم من طعن فى شعبية هذا النص ، انطلاقا من أنه كتب أصلا للأمير عبد العزيز الحفصى ووزيره الأعظم محمد بن عبد عوانة الزواوى ، بغية تسليتهما وامتاعهما بعد هروبهما من الجزائر إلى تونس ، وأنه دار حصراً فى نطاق القصور والحريم ، ولعب فيه الخدم والعبيد دور الوسيط أو المحرّض ، بما يشى بعدم تمثيله لذوق الجماعة الشعبية العربية ووجدانها. لكن تواتره وانتشاره ،وتعرضه المستمر للحذف والإضافة والتعديل عبر تناقله ، يجعل منه تنويعة متميزة فى مدونة الخطاب الشعبى حول الجنس.

بل إن ترجمته تعرضت لهذه التحويرات ، حين قام سيرريتشارد بيرتون Sir R. Berton بترجمته إلى الانجليزية عام ١٨٨٦ ، عن نسخة فرنسية نشرت عام ١٨٧٦ ،فأضاف إليه فصلا كاملا عن الشذوذ الجنسى (٤٤) ، ذكر حصوله على معلومات عنه خلال جولاته بالشام، وقدمها على شكل طعوم فولكلورية نيئة ، جريا وراء دغدغة مشاعر القارئ الغربى فى التعامل مع مثل هذه الموضوعات كبضاعة للافتتان ،وتناهب النكهة

الشرقية.

كذلك صدر فى بريطانيا مطلع السبعينيات ،كتاب يحمل عنوان (الزهرة الناقصة من الروض العاطر) ، زعم فيه محققه أن ما جاء به هو الفصل الضائع من هذا النص (٤٥).

أما النص الأصلى الذى صاغه الشيخ النفزاوى ، فيشمل عشرين فصلا ، يتناول كل منها موضوعا مستقلا ، وان جازت قسمته إلى أجزاء رئيسية أربعة: الأول طبى ، يتحدث فيه عن وصفات لتقوية المقدرة الجنسية ،ومقترحات لمعالجة العجز والعنة ، ومسائل الحمل والولادة . والثانى عملى ، يتصل بآداب الجماع وطرق ممارسة الحب ،ومستلزماته من عطور وطيب وتجميل ،والثالث معجمى ، يتناول أسماء وصفات الأعضاء التناسلية ، وحالات الشذوذ الجنسى ، وأنواع النساء . والرابع سردى ، يتعلق بحكايات عن مكائد النساء ، وسبل الرجال للايقاع بهن.

على أن النص لم يكتف بهذه الفصول العشرين ، بل أضاف إليها هامشا بعنوان (الايضاح فى علم النكاح) ، يعلن عن نوايا الشيخ النفزاوى على تحويل هذا القالب المحدود إلى قالب مرن قابل للاتساع ، بما يعطيه حرية تجاوز فصول المتن إلى فتح الذاكرة على مزيد من المشاهد الجنسية . وكلا المتن والهامش يتتالى تدوين عباراته دفعة واحدة ، بلا فواصل ولا علامات تنقيط ، بل كلمات متعانقة تستطيل مساحتها الطباعية.

وفى هذا الأفق ، تبدو الظاهرة الجنسية مطلقة الحضور، عبر ألفاظ وحكايات وقطاعات نصية مثقلة بسنابل الرغبة ، أن على مستوى المعجم أو السرد:

معجميا ، بحيازة النص قدرا من الدوال ، يحتل صدارته دال «الشهوة» لتزيد من كثافته دوال أخرى من حقله: «النكاح» ، «اللذة» ، «الجماع» تتردد فى روض الشيخ النفزاوى العاطر ، فتلعب مع مرادفاتها ومشتقاتها دورا مهما فى تشكيل فسيفساء الظاهرة ،وكلها كلمات تنتشر فى مفاصل النص ،وتمتاز بانفتاحها اللافت على غواية الجنس ، ورفد حمولته الشبقية، وهو ما يرصده الشيخ عندما يتحدث عن المحمود من النساء: «فهى المرأة الكاملة القد العريضة اللحم كحيلة الشعر واسعة الجبين مزججة الحواجب واسعة العينين فى كحولة وبياض ناصع مفخمة الوجه أسيلة الخد ظريفة الأنف ضيقة الفم محمرة الشفائف واللسان طيبة رائحة الفم والأنف طويلة الرقبة غليظة العنق

عريضة الصدر جيدة الخصر كبيرة الردف....(٤٦).

ولكن، هل ترى تنحصر مشغولية النص في مجرد الحديث عن المسألة الجنسية؟ أم أن له قروناً أخرى يجدر الإمساك بها ؟.

ثمة مايشي بهذا الاحتمال ، لو تجاوزنا المعجم إلى السرد ،والكلام إلى الواقع المعاش . بل إنه ليفرض نفسه بالحاح ،حين يبدو اشتغال السرد بالجنس تدبيراً لاشتغال آخر، تفتح وقائع حكاياته على شخوص تقترت بشرائح متعددة من النساء والرجال على متصل من الثنائيات : فمن الشرائح النسوية ،هناك الملكة والأميرة والسيدة مقابل الجارية والوصيفة والقهرمانة ،الجميلة والقبيحة ،البيضاء والشقراء والسوداء ، المتعففة والداعرة والمعربدة والمتولعة ، الشابة والعجوز ، ناهينا عن المحتالة والداهية والقوادة ، المشتكية والعياطة ، الهمازة اللمازة، والبكر والثيب.

أما شرائح الرجال ، فتتفاوت كذلك ما بين أمير المؤمنين والملك والسلطان والأمير والوزير والقائد وذى النعمة مقابل القواد والمعتوه ، والعبد والخصيّ ، وبينهم كاتم السر والسياف والمتوكل على بيت المال وكاتب الخزنة.

تتطّوح هذه الشخوص بين دوائر من الاستبقاء والاستبعاد ، بما يمكن من اختصارها فى نموذجين أساسيين : طبقة السادة وطبقة العامة، وتجلياتها فى الأميرة والعبد، وما يصل ويقطع بينهما من علاقات لا متكافئة .

ومع هذه العلاقات ، وبرغمها ، يبدو العبد كممثل لطبقة العامة متحيناً كل فرصة لتحقيق مكبوته مع الأميرة ممثلة طبقة السادة. هكذا يضحى جسد المرأة المهمة حلما يؤرق طبقة العامة ، نتيجة إحساس أفرادها بالاحباط والخيبة ، فى ظل نظام سياسى فرض عليها العبودية والدونية. إن العبد يظل فى حال اشتهاء دائمة لجسد سيدته ، أو زوجة سيده، وتلك حال من رفض المهانة التى يتعرض لها ،أو هى شعور بالانتقام من طبقة السادة، التى تستأثر بكل النساء ، حرائر كنّ أو وصيفات أو جوارى.

وحين التحقق بين العبد وسيدته ، تتداعى المسافة الفاصلة بين العبودية والسيادة: تستحيل سيدته مجرد امرأة ، تحضر حرية العبد ،تغيب السلطة ، وتنهار التراتبية . ولو قد انفضحت العلاقة ،فالخيانة هنا جرم فى حق الملّة ،ومس بالتراتبية ،وتهديد للقيم.

هكذا تحدثنا حكايات هذا النص الاثنى عشر (حكاية عبد الملك بن مروان وليلى

الأخيلية ، حكاية مسليمة وسجاح ،حكاية المأمون وبهلول ، حكاية الملك على بن الصيفى ووزيره ، حكاية الجعيد ، حكاية الرجل والفاتنة ، حكاية الشيخ الناصر لدين الله وبناته السبع ،حكاية النموى وزوجته ، حكاية الحمامى وابن الوزير ،حكاية مستطلع ليلة القدر ، حكاية المرأة المتفوقة على زوجها ، وحكاية الإسرائيلى).

وهذه الحكايات تتكئ على بعض من تقنيات السرد فى (ألف ليلة وليلة) ،وبخاصة ما يتصل بالتضفير ، أو توليد الحكى داخل الحكى ، كى تمنح أمثلة لمداومة تأويل ، يمكن للتراتبية الاجتماعية من التعبير عن نفسها ،وكشف مأزمها ،بأكثر مما هى حكايات جنسية.

والنص لا ينسى فى غمار معجميته أو سرديته ، أن يمارس تضمينا دينيا للظاهرة الجنسية ، فيلح على ضرورة انعقاد التواصل فى جو يسوده الوفاق والتودد والاحسان وحسن المعاشرة ، أو بتعبير الشيخ النفزاوى : « إذا خلوتم بالنساء فداعبوهن ولاعبوهن، ولا تكونوا كالفحل يأتى البهيمة بغتة» (٤٧) ، متراوداً فى ذلك مع ما جاء فى سورتى الروم(٤٨) ،والنساء (٤٩).

ويتآزر هذا التضمين مع نظير له فى ملفوظ النص، حين يستعين بفضل من الآيات القصار والأحاديث غير المسندة ، مضافا إليها آراء لكبار الفقهاء ، وأن أتى استدعاءه لهذه النصوص ، دون التزام لتراتبها القارّ بين مصادرة ، أو ممايزتها عن مصادر استشهاده الأخرى ، الممثلة فى كتابات جالينوس ، وابن سينا ،وابن سيرين، وأقوال لمكحول الشامى ،وعبد الملك بن مروان ،والجعيد ، وأبى الليث والحارث بن كندة ، والمسعودى ،مع نصوص شعرية لأبى نواس ، وبنى حكائية للجاحظ ، ومرويات متواترة ، حكمتها كلها احتياجات السرد، أن على مستوى السياق أو الحدث أو الشخوص (٥٠).

*** نحو فقه جديد:**

هانحن نقترب من تحسس تراوح المسألة الجنسية بين الفقه الرسمى والخطاب الشعبى ،وهو تراوح يمكن لحظة عبر مستويات ثلاثة من المرجعية وإعادة الانتاج والانفتاح:

على مستوى المرجعية ، يحضر ما يتعلق بهذه المسألة فى الفقه الرسمى على شكل محددات ونواه تمتاح من النص المقدس ، فيما الخطاب الشعبى يستمد مرجعية هذه

المسألة من الكلام الإلهى والموروث الاعتقادى والخبرة اليومية، متحاشيا أن يصنف كخطاب دينى ملتزم أو مارق .

وعلى مستوى إعادة الانتاج ، يؤكد الفقه الرسمى على قوى التحريم التى تثقل المرأة بقيود الخطيئة ومشاعر الإثم ، وينظمها بصرامة ،على حين يتغيى الخطاب الشعبى تخفيف هذه القوى ، وان جاز القول أن كليهما :الفقه الرسمى والخطاب الشعبى ،ينظران إلى المرأة بوصفها جسداً منتجا للذة ، ومكلفا باشباع رغائب الذكر(وعلى مستوى الانفتاح ، ففى مقابل الفقه الرسمى الحامل لخريطة المسموح والممنوع ، استقطابا للطاقة الجنسية وتحويل استعمالها إلى امتثالية دقيقة، وحفاظا على القيم والسلطة والتراتبية ، يبدو الخطاب الشعبى حول الجنس على استعداد دائم لاختراق قائمة الممنوعات ، بالنظر إلى انفتاح الذهنية الشعبية على شروط وجودها الاجتماعى الخاصة، التى لا تستجيب بالكامل للقائمة الالزامية المفروضة ،وإلى تيسير لانظامية خطابها لتلك المراوغة ،حيث يمكن أن يحضر المروق والتمرد ، فيتسع، لممارسات منحرفة ، تصل إلى تسويغ «الحمل الكامن» تغطية للعنّة والمباهاة «بقميص العروس» كاعلان لتسلم الزوج مهامه الرجولية الجديدة، وحل «المربوط» استعانة بالولى أو بحارس المعبد ،كما سجل يحيى الطاهر عبد الله فى رائعته (الطوق والاسورة).

من هنا يمكن القول أن ما تحويه المدوّنة العربية ، فى فقهها الرسمى أو خطابها الشعبى ، لا يعدو صورة للثقافة الجنسية ،نقلت المعرفة بها من دائرة تحسسها كأمر يخدش الحياء ويتنافى مع الدين والآداب ، ليصبح موضوعا قابلا للدرس والتحليل والتفكير والاجتهاد ، بما يوحى أن ليس فى الدين ما يصطدم بهذه المعرفة ، أو ما يحرم الخوض فيها ، وأن راهن الخطاب الشعبى بالأوضح ، على معرفة منها ، توجد فى مجتمع التراتبية ،والتاريخ الهش ، المكتنز بتقاليد بينّة أو مطمورة ، يصعب فيها بحثه عن بديل أثر كرامة.

ها نحن نتقدم فى مساءلة آباء هذا «الخطأ الرومانسى» ، وتلك مغامرة عسرة، تبدو فيها الحاجة إلى فقه جنسى جديد ، يتسق مع فقه سوسيولوجى جديد ، بما يشى بأن كتابة خطاب تحررى حول الجنس، لابد أن يرفده تحرير مجتمع فاقد لمحفزات صيرورته ونموه ، وهو تحرير وجب فتح بشارة وعيه الصحيح على مصراعيها.

* الاحالات:

(١) صحيح البخارى ،الجزء الثالث ، طبعة عبد الرحمن محمد، القاهرة ١٣٤٢ هجرية ، ص١٥٣.

(٢) المصدر نفسه ، ص١٥٤.

(٣) الآية (٢١) من سورة الروم.

(٤) الاية (٢٢٣) من سورة البقرة.

(٥) الآية (٢٣) من سورة النساء.

(٦) الآية (٢٢١) من سورة البقرة.

(٧) مثلا الآية (٣٢) من سورة الإسراء ،والآية (٢٥) من سورة النساء، والآيتان (٢و٣) من سورة النور.

(٨) من حديث ورد لدى الترمذى ، وداود ، وابن ماجة ، وابن حنبل.

(٩) الاية (١٥) من سورة النساء.

(١٠) الاية (١٦) من سورة النساء.

(١١) الآية(١٨٢) من سورة البقرة.

(١٢) من حديث ورد لدى الترمذى ،وابن حنبل :«الطهور نصف الايمان».

(١٣) الآية (٢٣٥) من سورة البقرة.

(١٤) الآية (٤١) من سورة الروم، والآية (١) من سورة النساء.

(١٥) الآية (٢٣٢) من سورة البقرة ،والآية (١٩) من سورة النساء.

(١٦) **Bastide, R.: Anthropologie Appliqnee , Payot, Paris, 1971, p. 83.**

(١٧) أشار السقطى وابن رشدوابن أبى زيد القيروانى إلى ظاهرة اقتناء الأمة قصد المتعة واللذة، لمزيد من التفصيل ، يراجع : أمال القرامى : «المرأة ومتعتها بين الاقصاء والردّ عليه» فى (تاريخ النساء المغاربيات- الاقصاء وردّات الفعل) ، تنسيق محمد منقاشى مطبوعات جامعة ابن طفيل ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، القنيطرة ١٩٩٧ ، ص٩.

(١٨) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف ،

دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٨٩ ، ص٣٠٤.

(١٩)ابن قيم الجوزية : أخبار النساء ،تحقيق نزار رضا ، دار مكتبة الحياة، بيروت ، ١٩٨٨ ، ص ص ١٦١-١٦٢.

(٢٠)عبد الوهاب بوحديبة: الإسلام والجنس ، ترجمة هالة العورى، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص١٦٢.

(٢١) الونشريسى : عدة البروق فى جمع ما فى المذهب من الجموع والفروق الجزء الثانى ، دار الغرب الإسلامى، بيروت ، ١٩٩٠ ، ص٢٦٦.

(٢٢) ابن رشد : «المدونة الثانية من المدونة الكبرى لمالك» فى (المقدمات) ، دار الفكر ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص١٦٨.

(٢٣) البغدادى : المتطيب -رسالة جامعة لفنون نافعة فى شرى الرقيق وتقليب العبيد ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩١ ، ص٤٠٦.

(٢٤) الغزالى : التبر المسبوك فى نصيحة الملوك، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ص٢٧٥.

(٢٥) المصدر نفسه ، ص٢٧٠.

(٢٦) أبو بكر الرازى: الطب الروحانى ، مكتبة النهضة ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص٥٥.

(٢٧) أبو اسحق الجوينى الأثرى : الانشراح فى آدب النكاح ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ص٢٨.

(٢٨) البغدادى مصدر سابق ، الجزء الثالث ، ص١٢٤.

(٢٩) الونشريسى ، مصدر سابق ،ص٦٨.

(٣٠) ابن حزم : طوق الحمامة ، دار الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص٥٤.

(٣١) شهاب الدين أحمد التيفاشى: نزهة الألباب فيما لا يوجد فى كتاب ، تحقيق جمال جمعة ، دار رياض الريس، لندن ، ١٩٩٢ ص١٧.

(٣٢) محمد بن أحمد التجانى : تحفة العروس ومتعة النفوس، دار رياض الريس ، لندن ، ١٩٩٢ ، ص١١٢.

(٣٣) محمد بن محمد النفزاوى : الروض العاطر فى نزهة الخاطر،مكتبة المنار، تونس بدون تاريخ ، ص٣.

(٣٤) أحمد بن سليمان : رجوع الشيخ إلى صباه فيما هو فى تقوية الباه وزيادة الانعاظ ، بدون دار نشر ، وبدون تاريخ ص٥.

(٣٥) يعرّف التيفاشى الدبابين بأنهم من يستغلون ظلام الليل ساعة النوم ، فيهجمون على غلام أو رجل ، ويمارسون الجنس معه قسراً، ويتحدث عن الشروط الضرورية التى لابد أن يتوافروا عليها لكى يكون عملهم «ناجحا» ،وعن الأدوات والعدة التى يحملونها معهم لحاجتهم إليها فى تسهيل قضاء أربهم . يراجع :التيفاشى ، مصدر سابق، ص ص ١٠١-١٠٣.

(٣٦) لمزيد من التفصيل وحول قصص المعتقدات ، يراجع:

El -Shamy, H. (Edition and Translation): folktales of Egypt , forward by R. Dorson , the university of Chicogo Press , 1980, pp. 4-5.

(٣٧) التجانى ، مصدر سابق ، ص٣٨٧.

(٣٨) الونشريسى :المعيار المعرب ،والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب ، الجزء الرابع ، اشراف محمد صبحى ، مطبوعات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الرباط ١٩٨١ ، ص٦٧.

(٣٩) البكرى : المسالك والممالك ، الجزء الثانى ، الدار العربية للكتاب- بيت الحكمة ،تونس ، ١٩٩٢ ، ص٨٨٥.

(٤٠) محمد بن محمد النفزاوى ، مصدر سابق ، ص٤.

(٤١) أحمد عمر شاهين : «الروض العاطر موسوعة عربية فريدة فى الثقافة الجنسية» فى(الروض العاطر فى نزهة الخاطر- شهادات ومختارات) ، اعداد وتحقيق هانى الخيرّ ، دار أسامة دمشق، ١٩٩٠ ، ص٤٧.

(٤٢) عبد اللطيف ياسين : «الروض العاطر بادرة جريئة» ، المرجع السابق ، ص٦٩.

(٤٣)خلدون الشمعة:«خارج أسوار الأدب الرسمى» ، المرجع نفسه ، ص٩.

(٤٤) حصل الباحث السورى ياسين صالحانى المعط على درجة الدكتوراة فى الأدب الانجليزى ، عن أطروحة قدمها حول بيرثون وترجمته لهذا النص ، من جامعة سانت أندروز فى اسكتلندا عام ١٩٧٨ ، يراجع هانى الخيّر ، المرجع السابق ، ص٢٣.

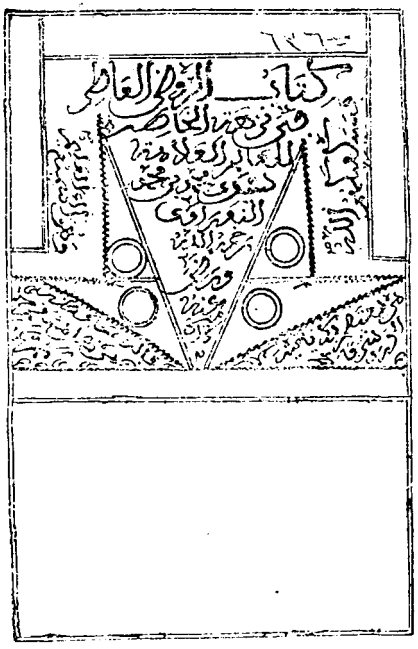

نموذج عن الورقة الاولى من مخطوطة الظاهرية بدمشق

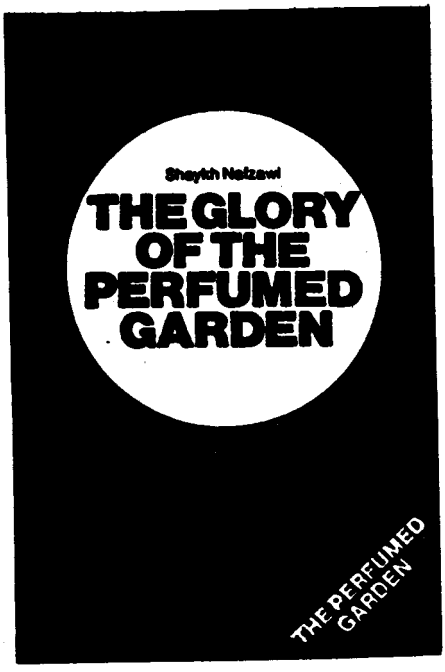

غلاف الروض العاطر في طبعته الانكليزية

(٤٥) المرجع نفسه ، ص٢٩.

(٤٦) محمد بن النفزاوى ، مصدر سابق ، ص١٤.

(٤٧) المصدر نفسه ص ١٧.

(٤٨) الاية (٤١) من سورة الروم.

(٤٩) الآية (٤) من سورة النساء.

(٥٠) من هذه المرويات ،ما ذكره النفزاوى حول حكاية تفوق فحولة امرأة على فحولة زوجها(ص٧٤) ،والمنقولة من إحدى رسائل الجاحظ ، يراجع : رسائل الجاحظ ، الجزء الثانى ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ص١٣٢ -١٣٣.